أولادنا في زمن التواصل الاجتماعي

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 1 إبريل 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

تنهدت وقالت: «نكاد لم نعد نتمكن من تربية أولادنا»، هكذا بدأت حديثها معي وذلك أثناء دورة تدريبية في موضوع يتعلق ببعض أساليب الإعلام والتواصل والذكاءات التي يمكن الاستفادة منها في حل بعض المشكلات العامة والخاصة.

ثم أردفت وقالت: عندما كنا أطفالاً كان لدينا تلفزيون واحد فقط، وهذا التلفزيون موجود في الصالة أو الغرفة الرئيسية من المنزل والتي يجلس فيها الجميع، وهذا يعني أنه لا يمكن لأي من كان مشاهدة التلفزيون بمفردة، ثم جاء الفيديو وما إلى ذلك من وسائل تساعد على إعادة مشاهدة الأفلام والبرامج، وحتى ذلك فقد رفض الوالد – رحمه اللّه – أن تغادر هذه الأجهزة الغرفة الرئيسية، هذا على الرغم من أننا كبرنا وأصبح لكل منا غرفته الخاصة. وعندما جاء الكمبيوتر ودخل منازلنا بقينا على ذلك حتى بعد مغادرة والدي – رحمه اللّه – الدنيا، إذ أصبح ذلك عُرف لدينا، بمعنى أن تبقى مثل هذه الأجهزة في الصالة أو الغرفة الرئيسية من المنزل.

وحتى عندما دخل التلفون المنزل وُضع في الغرفة الرئيسية، فالأحاديث عادة ما تكون عامة، فليس هناك مجال للانفراد بالتلفون والأحاديث الخاصة وبصوت منخفض.

وفي الحقيقة لم نكن نعرف الهدف الرئيسي من ذلك، أي ألا ينفرد الشخص مع هذه الأجهزة، فلم نكن نناقش الوالد أو نتدخل في قراراته، ولكننا اليوم نجد أن رأيه كان صائبًا.

اليوم كل طفل – وأعني أن أقول كل طفل في المنزل – يملك كل تلك الأجهزة بيده، التلفزيون والفيديو والحاسوب ليس ذلك فحسب وإنما كل وسائل التواصل في جهاز واحد وهو التلفون الذكي النقال، فهو يمكن أن يشاهد ما يرغب من أفلام ومسلسلات، ويمكنه أن يتحدث مع من يشاء وفي أي وقت شاء، ليس ذلك فحسب وإنما يمكنه أن يتواصل بالصوت والصورة، وأن يرى ويسمع ما يريد ومهما كان مستوى هذا المعروض أمامه.

أصبح الأطفال مشدوهين أمام تلك الأجهزة والتطبيقات الحديثة، فغدوا يلجؤون إليها لسد أوقات فراغهم وهربًا من الواقع الذي يعيشونه، بهدف أن يعيشوا عالمًا من صنع خيالهم، عالما يعتقدون أنه أجمل من الذي هم فيه، وليشعروا بأنهم مرغوبون ومهمون، ولكنهم في غفلتهم تلك نسوا أو تناسوا أن تلك مشاعر زائفة تسد تلك الفجوة التي يخلفها الإهمال وغياب الوعي والإدراك.

ويا ليت الوضع بقي على هذه الحالة وإنما ظهر لدينا الكثير من الباحثين عن الشهرة عن طريق تلك المقاطع، بل تعدوا الحد بمقاطع مستفزة، وأحيانًا مرعبة، وفي مرات مثيرة للعواطف، وأصبح مقصد هؤلاء الشهرة والانتشار من دون مراعاة لمن يوجه لهم هذا الخطاب المرئي.

فأصبح من السهل على الطفل أو المراهق أو حتى كبار السن الذين يعيشون الفراغ العاطفي التواصل مع شخصيات عديدة ومخاطبتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مما غيّر كثيرًا في سلوك أبنائنا وتصرفاتهم وحتى عباراتهم وألفاظهم، فظهرت مصطلحات جديدة تتواكب مع ثورة التكنولوجيا. وأصبح الطفل أو هذا الإنسان يتابع عبر اليوتيوب أو السناب شات أو الواتساب مقاطع لبعض الأشخاص، يتضمن بعضها تحريضًا على العنف، ومقالب يقال إنها فكاهية وهي في الحقيقة لا تحمل مضمونًا ولا هدفًا إلا السخرية من الآخرين، وأصبح هذا الإنسان ينام ويستيقظ على كم هائل من المشاهدات فيها الصالح والطالح، وهذا بذاته عبء ثقيل على الأسرة من حيث الرقابة على الأجهزة وما يشاهده أبناؤها».

أثرت تلك الكلمات في القاعة، فساد الوجوم على الجميع وأخذ الكل يفكر في الموضوع، فشعر الجميع بأنه – نوعًا ما – مذنب، فمن يشتري تلك الأجهزة للأطفال، وخاصة تحت الإلحاح والصراخ والعناد، ليس ذلك فحسب وإنما نحاول نحن الآباء والأمهات أن

نتهرب من بعض مسؤولياتنا تجاه الأبناء نشتري لهم مثل تلك الأجهزة حتى ينصرفوا عنا ويتركونا في حال سبيلنا لنعيش كيفما نريد، وكأننا غير مسؤولين عنهم.

وفي المساء ذهبتُ أبحث في هذا الموضوع من خلال أرشيفي المنزلي الخاص، ولكني للأسف لم أجد ما يروي غليلي فيما يخص الوطن العربي، كدراسات أو كتب، إلا فيما ندر بعض المقالات من هنا وهناك، وجهت وجهي شطر الغرب فصدمت بالكم الكبير من تلك الدراسات وتلك الكتب والقصص التي تتحدث عن هذا الموضوع، فما زلنا نحن وحتى في الموضوع الذي يمس قيمنا وتراثنا وأخلاقياتنا في آخر الركب.

في اليوم التالي للدورة التدريبية استعرضتُ للمتدربين بعضا من تلك النتائج وكان منها:

1. في استطلاع للرأي قام به البنك المحلي في ولاية الراين الشمالي بألمانيا يحمل اسم «بارومتر الطفل» تم الوقوف على آراء 111 ألف طفل من مراحل المدرسة الابتدائية والمتوسطة، من عمر 10 - 14 سنة، اتضح أن حوالي 37٪ من الأطفال يتجاوزون الحدود التي يرسمها الوالدان لترشيد استعمالهم للهاتف الجوال الذكي، وشبكة الإنترنت.

2. **لقد أظهر الاستطلاع أن 100٪ من الأطفال تعلموا طرق إبطال عمل برامج أمن الأطفال، واستخدام الجهاز في أوقات الحظر العائلي.**

3. **كما أن 24٪ منهم يواصلون استخدام التلفون الذكي من خلال استخدام صديق لا يخضع لرقابة ذويه، أو أنه يشاركه استخدام النقال أثناء فترات السماح التي يحددها الأهل لذلك الصديق.**

4. **أن 23٪ ذكروا أنهم يعرفون كيف يمحون من الجهاز الصفحات التي يزورونها لكيلا يتعرف الأهل على الصفحات الممنوعة التي زاروها.**

5. **وربما الصدمة هنا أن عدد الأطفال الذين يستعملون الهواتف الذكية بلا رقيب ليس كبيرًا، لأن 88٪ قالوا إن ذويهم وضعوا حدودًا لاستخدامهم الجهاز، لكنهم يعرفون كيف يتحايلون على هذه الحدود.**

وفي دراسة أخرى قامت بها إحدى المؤسسات اليابانية على أطفال تتراوح أعمارهم بين (8 و18 سنة)، تبين أن 70٪ من هؤلاء الأطفال يملكون هواتف نقالة خاصة بهم. وقد كان من الأمور المهمة التي أظهرتها الدراسة هو عدم وجود علاقة لدخل الأسرة ومستواها الاجتماعي بامتلاك الأطفال للهاتف الذكي.

وقامت مؤسسة غير ربحية بإجراء دراسة على طلاب أعمارهم بين 10 و14 سنة حول تعرضهم للتحرش على الشبكة العنكبوتية (النت)، فكانت النتيجة:

1. أن 42٪ من الأطفال تعرضوا للتحرش في أثناء وجودهم على الشبكة.

2. أن 35٪ من الطلاب تعرضوا للتهديد على الشبكة.

3. أن 58٪ من الأطفال يعترفون بأن شخصًا قال لهم كلمات بذيئة ومؤذية على الشبكة.

4. أن 58٪ من الأطفال لم يخبروا أولياء أمورهم عن أمر وضيع حصل معهم على الشبكة.

في الحقيقة هذه بعض الدراسات وبعض الأرقام الآتية من الغرب، وإن كنا نعتقد أننا في العالم العربي بعيدون عن مثل هذا الواقع فإننا واهمون، فأطفالنا ومراهقونا وحتى كبار السن معرضون لمثل هذه العالم الافتراضي الوهمي الزائف، يقول أحد الرجال الذين أصبحوا على مشارف الستين من إحدى الدول العربية:

«دخلت عليّ – في الانستغرام – فتاة، أو ربما تدعي أنها فتاة، لا أعرف، قالت إنها من أسرة ذات نفوذ ومركز مرموق في وطنها، وأنها اليوم تدرس في أمريكا، وبدأت ترسل لي صورها، وفعلاً أعجبت بجمالها، وخاصة أني كبير في السن وزوجتي كبيرة لا

تستطيع أن تواكبني، شعرت من كلامها وتصرفاتها ومن صورها شبه الخليعة أنها – بالفعل – مغرمة بي، فبدأتُ في مراسلتها من غير تحفظ، وبدأت أكتب وأرسل، وأصور وأرسل، وأشرح لها عن مواجعي وآهاتي ومشاعري، وفعلاً شعرت بأني عدت مراهقا، وهذه التفاصيل تطول كثيرًا. ولكنها في النهاية طلبت مني مبلغا صغيرا من المال، صغيرا جدًا، تافها، فأرسلت لها على الحساب الذي أرسلته لي، وبعدها بعدة أيام طلبت مبلغا أكبرا فسددته، واستمر الحال على هذا المنوال، فزادت المبالغ المالية، حتى بلغت إلى الحد الذي لا أستطيع سداده، عندئذ بدأت تهددني بالصور والكلمات التي كنت قد أرسلتها سابقًا، فإما الدفع وإما الفضيحة، وأنا لا أحتمل الفضيحة في هذه السن، فماذا يمكنني أن أفعل ؟».

ولا أدري ماذا فعل هذا الرجل، ولكن كل الذي استطعت أن أدله عليه هو إدارة الجرائم الإلكترونية في بلاده، لعلها تساعده في المصيبة التي أوقع نفسه فيها، وللعلم ما يقع في الرجال يمكن أيضًا أن تقع فيه النساء كذلك، فالموضوع ليس له حدود.

وللشباب والشابات أحاديث كثيرة جدًا لا أول لها ولا آخر، فهذه الحكاية قد قرأتها منذ سنوات في إحدى الصحف الأجنبية، وهي كالتالي:

في العاشر من شهر أكتوبر الماضي، وقع في ... حادث هز المجتمع بأسره، ولم تتوقف أصداؤه حتى كتابة هذه السطور (عام 2012)،

فقد أقدمت فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها على الانتحار، ولم يكن الحادث في حد ذاته صدمة بقدر ما رافقه من ملابسات مؤلمة جداً، فالفتاة فعلت ذلك بعدما مرت برحلة طويلة خلال سنواتها الثلاث الأخيرة من مشاكل وابتزاز مع مواقع التواصل الاجتماعي، وقامت قبيل انتحارها بسرد قصتها على ورقات أظهرتها تباعًا في مقطع فيديو حملته على موقع (يوتيوب) ثم انتحرت، لتترك خلف رحيلها المجتمع بأسره يتحدث عنها وعن أسباب وملابسات ما جرى لها.

القصة بدأت حينما كانت «الفتاة» في صفها السابع (أول متوسط) تحاول الدخول والتعرف على عالم «الفيسبوك» وغيره لتصلها رسالة تحمل كلمات الإعجاب بجمالها والتعليق على صورها ومنشوراتها، ثم نشأت بينها وبين أحدهم علاقة عاطفية لم تدم طويلاً إلا أن هذا الأخير استطاع الحصول على صورة فاضحة لها، لتجد الصورة قد انتشرت بين رفاقها في مدرستها الثانوية، وبدأ زملاؤها بالسخرية واللمز حول شكلها في الصورة التي ظهرت لهم في هواتفهم وعلى مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، عانت من سخريتهم ومن انتشار صورتها وقصتها في المجتمع المدرسي إلى حد اتخاذها قرارًا بتغيير مدرستها، ولم تمضِ فترة طويلة في مدرستها الجديدة حتى اكتشفت وجود صفحة باسمها في «فيسبوك» تنشر صورها وفضائحها، وقد بدأ زملاؤها الجدد

بتناقلها فيما بينهم، وأخيرا قررت الانتقال والعيش مع أمها في مدينة لا يعرفها فيها أحد.

انتقلت «الفتاة» إلى المكان الجديد وبدأت أيامها بالتحسن، وكونت لها عالمًا جديدًا ومجموعة أصدقاء أخرى، واستطاعت استعادة لياقتها النفسية وصحتها العاطفية. وما هي إلا عدة أشهر حتى أطل شبح ماضيها الأسود؛ فقد اكتشفت وجود «هاشتاج» باسمها في موقع «تويتر»، ويكتب فيه العشرات ممن تعرف أو لا تعرف، لتقرر بعدها إنهاء حياتها من دون أن تُعلِم بذلك أقرب المقربين لها. انتهت القصة.

وبعد أن انتهيت من سرد الأرقام وبعضا من تلك القصص، قال أحد المشاركين: حسنٌ، كيف يمكننا أن نمنع مثل هذا ؟ هل يمكننا أن نردع أبناءنا عن مثل هذه الوسائل ؟

مرة أخرى سكت الجميع، ولا إجابات.

وفي الحقيقة فإن الإجابة صعبة وربما غير واضحة، ولكن الذي يمكنني أن أقوله إن هناك حِملا كبيرا يقع على كاهل وزارات التربية والتعليم، سواء من خلال المناهج أو عمل دورات توعية حول هذا الموضوع، فهذا جزء من التحرش يجب الانتباه إليه.

وأما بالنسبة للوالدين فهما عنصر الأمان الأول في هذا الموضوع، هو مقدار متانة العلاقة بين الطفل وبين أسرته، فكلما تلقى من

والديه حبًّا واهتمامًا وتوجيهًا ومشاركة وتفهمًا لمشاعره من سنوات عمره الأولى؛ قل تأثير الأخطار المحيطة به ومن ضمنها الإنترنت، وكلما أوجد الوالدان مساحات زمنية في اليوم مع الطفل المراهق تجمع به بعيدًا عن الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، وكانت هذه الأوقات مليئة بالحب والتوجيه والمزاح والموعظة وغيرها؛ سهُل على الوالدين مساعدته في معرفة مسؤولياته تجاه العالم الافتراضي وغير الافتراضي.

والموضوع كبير، ولا يمكن الانتهاء منه هنا، ولكن يجب أن نتوقف بطريقة أو بأخرى.

ويقول أحدهم: إن أمكننا أن نمنع التليفونات الذكية عن الأطفال وخاصة في المرحلة الابتدائية والإعدادية فهذا أمر حسن.

ويمكننا هنا أن نسأل: هل فعلاً يمكننا أن نمنع الهواتف الذكية اليوم عن أولادنا ؟